جهود شوقى ضيف
فى الدراسات اللغوية

د. محمود فهمى حجازى

يرجع اهتمام الأستاذ الدكتور شوقى ضيف بعلوم اللغة العربية إلى مرحلة مبكرة من حياته العلمية، كان تحقيقه لكتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى بداية عطائه فى الدراسات اللغوية العربية (١٩٤٧)، واستمر عمله الجاد تأليفًا وإشرافًا على مدى ثلاثين عامًا، فظهر كتابه المدارس النحوية (١٩٦٨)، ثم كانت عضويته فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٧٧) بداية جديدة لأعمال الفكر فى قضايا اللغة العربية وتيسير النحو، ولكل هذه الجهود مكانتها فى تاريخ الدراسات اللغوية فى جامعاتنا العربية.

إن الدكتور شوقى ضيف يمثل الجيل الأول من الأساتذة الجامعيين، الذين تلقوا تكوينهم حتى الدكتوراه بالجامعة التى نعرفها اليوم باسم جامعة القاهرة، عرف عددًا من المستشرقين، وعرف جهودهم العلمية فى الدراسات العربية والسامية، وأفاد من بحوثهم اللغوية فى التاريخ المبكر للعربية فى ضوء اللغات السامية، ولكن اهتمامه الأول لا يدخل فى إطار اهتمامات المستشرقين بالبحث اللغوى المقارن، لقد انطلق من التراث العربى، ومن النظر النقدى فيه فى محاولة جادة للتفكير فى التراث، وفى نقده، وفى تقديم اللغة، والأدب العربيين إلى جمهور الدارسين، وبذلك كانت اهتماماته اللغوية فى اتجاهين، أحدهما: تطبيقى وهو يتصل بتيسير النحو وتعليم العربية، والثانى: تاريخى بحثى يتناول تراث النحو العربى.

أولا: قضية تيسير النحو وتعليم العربية:

يعد تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى (٥١٣-٥٩٢ هـ)، ومدخل الدكتور شوقى ضيف لهذا التحقيق عملين لهما مكانتهما فى إطار قضية تيسير النحو العربى. والواقع أن اختياره لهذا الكتاب، ومقدمته لهذا الكتاب يعكسان أمرين جديرين بالتنويه.

أولهما: أن تحقيق كتاب فى النحو العربى لم يكن أمرًا مألوفًا فى البيئة الجامعية، ولا فى

البيئات الثقافية الأخرى فى مصر، لقد بدأت طباعة كتب التراث النحوى العربى فى أوربا مع بداية عصر الطباعة، فطبع متن الكافية لابن الحاجب فى روما سنة ١٥٩٢، ثم توالت طبعات كتب التراث العربى النحوى فى أوربا، ومنها كتاب سيبويه بتحقيق المستشرق الفرنسى درينبور سنة ١٨٨١، وشرح ابن يعيش على المفصل بتحقيق يان سنة ١٨٨٢، وكتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى بتحقيق فايل ١٩١٣، وكاد تيار تحقيق كتب التراث النحوى العربى فى أوربا يتوقف بعد ذلك. أما فى العالم الإسلامى فقد ساد تيار إعادة طبع الكتب النحوية المحققة، فطبعت ل المؤلفات السابقة طبعة ثانية، وكان لمطبعة بولاق، ولمطابع القاهرة بصفة عامة دور كبير فى هذا الصدد، وإلى جانب هذا طبعت عدة كتب كانت متداولة عند طلاب الأزهر والمؤسسات الأخرى المعنية بالدراسات العربية، أكثرها شروح على ألفية ابن مالك، وهذه الطبعات التجارية تتسم فى أحسن الأحوال بتقديم نص يصلح للطلاب، ولكنها فى الأغلب الأعم لم تكن طبعات محققة، وفى هذا الإطار يعد تحقيق الأستاذ الدكتور شوقى ضيف لكتاب ابن مضاء من بواكير الجهود الجامعية المصرية فى تحقيق كتب التراث النحوى العربى.

وثانيهما: أن تقديم فكر ابن مضاء ارتبط فى البيئات الثقافية فى مصر بقضية تيسير النحو لأغراض تعليمية، وهى قضية بدأت فى العصر الحديث مع رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٢م) بكتابه «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية»، وهو كتاب توسل فيه صاحبه بالجداول لعرض القواعد، ثم تتابعت محاولات التلخيص والتأليف المدرسى، وأشهرها جهود حفنى ناصف وزملائه فى كتاب «قواعد اللغة العربية» بمراحله المختلفة ثم جهود على الجارم، ومصطفى أمين فى كتابهما النحو الواضح بأجزائه المتكاملة، وقد بدأت القضية تتخذ أبعادا جديدة عندما شغل إبراهيم مصطفى فى محاضراته الجامعية بالنظر فى موضوع الإعراب، فكان كتابه «إحياء النحو» بداية نظر جديد، كانت قضية العامل المحور الذى رأى فيه إبراهيم مصطفى جوهر المشكلة، فرأى إلغاء نظرية العامل، وفى نفس الفترة الزمنية نجد وزارة المعارف تحاول الإفادة من المؤسسات الجديدة المعنية باللغة العربية، وفى مقدمتها مجمع اللغة العربية بالقاهرة. لقد طلبت وزارة المعارف فى عهد وزيرها بهى الدين بركات باشا (١٩٣٨) تيسير النحو، فقامت لجنة برئاسة الدكتور طه حسين بإعداد مقترحاتها فى هذا الصدد، وقدمتها إلى الجهات المعنية، ثم ناقشها مجمع اللغة العربية فى القاهرة (١٩٤٥)، وعرضت على المؤتمر الثقافى الأول الذى اجتمع فى لبنان (١٩٤٧). وفى هذا الإطار وجد تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء، ومقدمة الدكتور شوقى ضيف له البيئة الثقافية الطامحة نحو التجديد، ولكنها كانت تود أن تجد لهذا التجديد أصوله التراثية أيضا. إن نشر هذا الكتاب أعاد فكرة إلغاء العامل إلى ابن مضاء، وبقى فى كتاب إبراهيم مصطفى الكثير مما يعد اجتهادًا منه، وإضافة له.

لقد أخرج الدكتور شوقى ضيف كتاب «الرد على النحاة» محققًا فى نحو ثمانين صفحة مع دراسة فى نحو ثمانين صفحة أيضًا. وانتهى فى آخر هذه الدراسة إلى رأى قرره بقوله: «إننا حين نطبق على أبواب النحو مادعا إليه ابن مضاء من منع التأويل والتقدير، فى الصيغ والعبارات، كما نطبق على هذه الأبواب مادعا إليه من إلغاء نظرية العامل، نستطيع أن نصنف النحو تصنيفًا جديدًا يحقق ما نبتغيه من تيسير قواعده تيسيرًا محققًا، وهو تيسير لا يقوم على ادعاء النظريات، وإنما يقوم على مواجهة الحقائق النحوية، وبحثها بطريقة منظمة لا تحمل ظلمًا لأحد، وإنما تحمل التيسير من حيث هو حاجة يريدها الناس إلى النحو العربى فى العصر الحديث».

وهنا نجد شوقى ضيف يسهم برأيه فى التجديد مع توثيق هذا الرأى بالأصول التراثية، فيقدم لتحقيقه لكتاب ابن مضاء مقدمة مفصلة لم يقتصر فيها على التعريف بالمؤلف وبفكره النحوى، بل نظر - أيضًا - فى الانطلاق من هذا كله إلى بيان حاجة النحو إلى تصنيف جديد. ويقوم هذا التصنيف على مجموعة من الأسس العامة:

١ - الانصراف عن نظرية العامل.
٢ - منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات.
٣ - عدم إعراب الكلمة مادام إعرابها لا يفيد شيئًا فى صحة النطق.

وهذه الأسس تتكامل مع الأساس الرابع الذى أضافه بعد ذلك.

٤ - (استنباط) ضوابط سديدة أو دقيقة للأبواب بحيث تتبين الناشئة أوضاعها ووظائفها فى التعبير تبينًا تامًا.

وظلت هذه الأسس مجالاً للحوار والمناقشة، ومجالاً للتفكير والنقد فى محاولات تيسير النحو منذ تلك الفترة.

لقد استمر العطاء العلمى للدكتور شوقى ضيف متصلاً فى مجال النحو، وفى غيره من المجالات الأدبية واللغوية، وعندما عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى الرياض (١٩٧٧)، ندوة متخصصة لبحث وسائل تطوير إعداد معلمى اللغة العربية فى الوطن العربى، كان الدكتور شوقى ضيف أحد أعلام الباحثين فى هذه الندوة، فقدم بحثًا موضوعه: «الدراسات اللغوية والنحوية والأدبية» فى إعداد معلمى العربية، وأعد فى نفس الفترة بحثه فى «تيسير النحو» وقدمه فى دورة مجمع اللغة العربية فى القاهرة (١٩٧٧)، وكلا البحثين عرض جديد لفكر جاد فى قضايا تعليم العربية، وإعداد معلميها.

إن الفرق الأساسى بين فكره أثناء تحقيق الرد على النحاة والتقديم له - وهى فترة سادتها عند دعاة التجديد فكرة إلغاء العامل، وفكره فى السنوات الماضية يكمن فى نظرته إلى اللغة، حيث لم تعد القضية تقتصر على كيفية الإعراب ووسائل التعبير عنه، ولكنها قضية اللغة فى أبعادها الصوتية والصرفية والنحوية، الجديد فى بحثه الخاص بإعداد معلمى العربية تأكيد واع لأهمية الجانب الصوتى فى إعداد المعلم وفى ممارسة اللغة. لا يقتصر الأمر على نطق الأصوات المفردة، بل يتناول - أيضًا - ظواهرها السياقية، ومنها قضية الوصل والقطع، وفى هذا البحث تأكيد لأهمية الجداول الصرفية، وما ينبغى لمعلم العربية أن يتقنه اعتمادًا عليها، ولعل من أهم ما ورد فى هذا البحث ذلك النظر الجديد فى العلاقة بين النظرية والتطبيق فى تعليم النحو، وهنا نجده يطالب بأن يكون تدريس النحو قائمًا - فى المقام الأول - على تلك التدريبات الهادفة إلى تكوين سليقة لغوية عربية، فإذا كان للنحو ثلاث ساعات أسبوعيًّا جعلت محاضرة للنحو النظرى، ومحاضرتان للتطبيقات النحوية، وهكذا نجد فى هذا البحث تعاملاً مع اللغة فى أبعادها الحية المتكاملة وتوجيها نحو الممارسة اللغوية، فى حين أن نجد فى بحثه فى «تيسير النحو» تصورًا فكريا للنحو الميسر المقترح.

ثانيا: التأريخ لمدارس النحو العربى:

للدكتور شوقى ضيف دور كبير فى توجيه الدراسات الجامعية، نحو الاهتمام بالتراث النحوى العربى. لقد أثار تحقيقه لكتاب «الرد على النحاة» (١٩٤٧) اهتمامًا بالتراث النحوى، فبدأت البحوث الجامعية فيه. تتضح هذه الحقيقة من النظر فى اتجاهات الرسائل الجامعية قبل هذا التاريخ وبعده، فقد أجازت كلية الآداب بجامعة القاهرة (حتى ١٩٤٧) اثنتى عشرة رسالة للدكتوراه فى الأدب العربى، ولم تمنح درجة دكتوراه واحدة فى النحو العربى، أما رسائل الماجستير فضمت ٣٤ رسالة فى الأدب العربى فى مقابل ثلاث رسائل جامعية فى الدراسات اللغوية العربية، واحدة منها فقط فى التراث النحوى العربى، وهى رسالة محمد على القصاص[١] وموضوعها: «ابن جنى وفلسفته اللغوية» (١٩٣٩)، لقد بدأ اهتمام جديد ببحث التراث النحوى، وأجيزت بجامعة القاهرة بعد عام ١٩٥١ سلسلة من الرسائل الجامعية تناولت: القرآن والنحو، والخليل بن أحمد، وسيبويه، وثعلب ومدرسة الكوفة، والزجاجى، والرمانى، والفارسى، وأبا حيان، وكأن هذا الاهتمام الجامعى الجدير بالبحث فى التراث النحوى العربى قد بدأ بعد صدور كتاب الرد على النحاة. وكثير من هذه الرسائل كان بإشراف الدكتور شوقى ضيف بكلية الآداب بجامعة القاهرة.

---

(١) هو أستاذنا الدكتور محمد القصاص أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس.

وفى هذه الفترة (١٩٤٧ - ١٩٦٥) كان اهتمام الدكتور شوقى ضيف بالتراث النحوى العربى سمة مميزة له، ولمجموعة من الباحثين بإشرافه.

أراد التأريخ للنحاة والتعريف بجهودهم، وباتجاهاتهم فألف كتابه «المدارس النحوية»،فأخذ يؤلف هذا الكتاب أثناء عمله أستاذًا معارًا إلى الجامعة الأردنية فى العام الجامعى ١٩٦٥-١٩٦٦ وانتهى منه فى يناير ١٩٦٨، ومكان هذا الكتاب فى موضوعه جدير بالبيان، هو أول كتاب حديث بالعربية فى المدارس النحوية لم يسبق فى موضوعه إلا بكتاب المستشرق الألمانى فايل عن المدارس النحوية عند العرب، وهذا الكتاب نشره فايل (١٩١٣) مقدمة لتحقيقه لكتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى، إن الفرق واضح بين الكتابين، أقام فايل كتابه على فكرتين متقابلتين هما منهج القياس على المطرد عند البصريين، ومنهج القياس على الشاذ عند الكوفيين، وعرض لتطور المدرستين، وأوضح أهمية ابن الأنبارى ومكانة كتابه الإنصاف. وظل كتاب فايل بالألمانية العرض الوحيد لهذا الموضوع، إلى أن ظهر كتاب شوقى ضيف بمادة عربية أوسع، وعرض شامل، ورؤية مستوعبة تضم الجزئيات النحوية المتفرقة، فإذا بها تنتظم فى اتجاهات واضحة. وإذا كان شوقى ضيف قد عرف جهد فايل فإنه قد استطاع تجاوزه ونقده فى كثير مما ورد فيه، ولا سيما فيما يتعلق بمدرسة الكوفة وعلاقتها بالنحاة المبكرين.

لقد عرض شوقى ضيف لتأريخ المدارس النحوية، منذ نشأة التفكير فى النحو العربى، وارتبطت عنده هذه النشأة بالعامل الدينى، ويتمثل فى الحرص الشديد على أداء نصوص القرآن الكريم أداءً فصيحًا سليمًا، وبالعامل اللغوى القومى فى مواجهة الاختلاط بالأعاجم، وبرغبة المستعربين الجدد فى تعلم العربية، وبهذا وضع شوقى ضيف قضيته نشأة النحو العربى فى إطارها اللغوى الاجتماعى الصحيح، وتجاوز بهذا آراء سائدة تجعل وضع النحو من عمل أبى الأسود بأمر من على بن أبى طالب، إن شوقى ضيف يثبت لأبى الأسود جهوده فى إضافة النقط الدالة على حركات الإعراب، وهذا عمل جليل فى ضبط النصوص، ولكن ثمة فرقا بين ضبط النص وتحليل بنيته اللغوية.

إن محاولته التأريخ للمدارس النحوية العربية، قامت على أساس الآراء الواردة فى كتب النحو لا على أساس الأقاصيص التى تضمها كتب الطبقات والتراجم. وبذلك اتخذ النحاة المبكرون الذين وردت آراؤهم فى كتاب سيبويه أماكنهم الصحيحة، وفى مقدمتهم ابن أبى اسحق الحضرمى (المتوفى ١١٧ هـ)، وعيسى بن عمر الثقفى (المتوفى ١٤٩ هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (المتوفى ١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢ هـ)، وإعادة الاعتبار إلى هؤلاء جميعًا جهد علمى مشكور قام على جمع آرائهم المتناثرة، وبحثها وإيجاد السمات المنهجية فيها.

وهذا أيضًا شأن الخليل ودوره فى إقامة صرح النحو والتصرف، فإذا كنا لا نعرف اليوم كتابًا نحويًّا من تأليف الخليل فإن آراءه التى وصلت إلينا عند سيبويه أثبت بها شوقى ضيف مكانة الخليل فى البحث الصرفى والنحوى، وفى هذا الصدد كان ثمة اهتمام بالمصطلحات التى دارت فى تلك المحاورات، بين الخليل وسيبويه وفيها تكونت المصطلحات النحوية أو كادت. وأثبتت متابعة آراء الخليل أصالته فى البحث الصرفى، ففكرة الميزان الصرفى وما لها من أساس منهجى وتطبيقات صرفية، ومعجمية ترجع إلى الخليل، ولولا هذا الميزان لما قام البحث فى بنية الكلمة العربية واللغات السامية، إن نظرية العامل النحوى – على الرغم من كل ما أثير فى نقدها تعد من أهم محاور التحليل النحوى عند الخليل، أما أصول السماع والتعليل والقياس عند الخليل، فقد خصها شوقى ضيف بعرض تحليلى واضح.

وما نكاد نصل إلى الفصل الخاص بسيبويه حتى نجد بحثًا فى الكتاب وفى المنهج النحوى. فى هذا الفصل نجد فكرة العامل النحوى، التى وضع الخليل أصولها تصبح عند سيبويه أساسًا عامًّا فى تحليل الجملة العربية. وتناول شوقى ضيف – أيضا – قضايا السماع والتعليل والقياس عند سيبويه. ولعل من أهم ما تضمنه الفصل الخاص بالأخفش وتلاميذه أنه هو الذى فتح للكوفيين أبواب الخلاف على سيبويه وأستاذه الخليل حتى أصبح بحق الأستاذ الحقيقى لنحاة الكوفة، وقد أقام شوقى ضيف هذا الرأى بعد أن جمع آراء الأخفش من مئات المواضع فى كتب النحو فى وقت كان فيه كتاب «إعراب القرآن» للأخفش فى حكم المفقود[٢].

لقد اعتمد شوقى ضيف فى إقامة الكثير من فصول كتابه على آراء النحاة المتاحة فى الكتب النحوية الموسوعية، صنع هذا فى بحثه لأعلام أشارت بهم كتب الطبقات وأمهات كتب النحو لم تصل إلينا كتبهم على نحو مباشر، وتصدق هذه الملاحظة على قطرب وأبى عمرو الجرمى، وهشام بن محمد الضرير، وتصدق إلى حد كبير على الكسائى فهؤلاء جميعًا لم تصل إلينا كتبهم النحوية، لقد أعد شوقى ضيف كتابه فى المدارس النحوية فى وقت عزت فيه المصادر المباشرة لآراء الكثير من النحاة، فكان عليه أن يعود بين الفينة والفينة إلى مخطوط المقتضب للمبرد أو إلى مخطوط شرح السيرافى على سيبويه، واستطاع بهذا كله أن يعرض لمدارس النحو العربى وأن يرسم لها صورة واضحة الملامح.

لقد خصص شوقى ضيف القسم الثانى من كتابه للمدارس الكوفية، وكما ابتعد عن الاعتماد على الروايات المتداولة فى كتب الطبقات عن موضوع نشأة النحو العربى، واعتمد على كتب النحو نفسها، فإنه ابتعد أيضًا عن القول بأن أبا جعفر الرؤاسى ومعاذ الفرَّاء، قد

(٢) حققه تلميذنا النابه الدكتور فارس الحمد فى رسالة جامعية بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٨.

أسسا مدرسة الكوفة، ولهذا فإن النحو الكوفى بالمعنى الدقيق للكلمة بدأ تاريخه من الكسائى والفراء، لقد اهتم شوقى ضيف فى دراسته للمدرسة الكوفية ببيان مصطلحاتها النحوية، واستخرج طائفة من هذه المصطلحات، مثل: مصطلح الخلاف الذى جعلوه عاملاً معنويًّا لنصب الظرف إذا وقع خبرا، ومصطلح الظرف (= المفعول معه)، والتقريب (= اسم الإشارة هذا)، والفعل الدائم (= اسم الفاعل)، والمكنى والكناية (= الضمير)، والترجمة (البدل)، والتفسير (= التمييز). وأثبت بعد هذا كله أهم سمتين اتسمت بهما المدرسة الكوفية، وهما الاتساع فى الرواية والاتساع فى القياس، وهذا الاتساع فى وقت كان العمل النحوى فيه هادفًا إلى المعيارية، والتقنين جعل الدكتور شوقى ضيف يصف الكوفيين، بأنه يدل على نقص فهمهم لما ينبغى للقواعد العلمية من سلامة واطراد.

عرض كتاب المدارس النحوية أيضًا لاتجاهات النحاة العرب بعد هذه الفترة، وخصص الباب الثالث كله لمدارس مختلفة، وهى المدرسة البغدادية والمدرسة الأندلسية والمدرسة المصرية. وهو فى هذا كله يعتمد على ما تناثر لأعلام هذه المدارس من آراء نحوية فى كتب النحو الجامعية. كان يضم هذه الجزئيات، فإذا هى تنتظم على يديه فى اتجاهات واضحة ومتميزة، وهكذا قدم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف عرضًا علميًّا لمدارس النحو العربى بين دفتى كتاب واحد.

إن الدكتور شوقى ضيف أحد أعلام الدراسة الأدبية، وله أيضا تلك الإسهامات الواضحة فى الدراسات اللغوية، لا تقتصر مكانته على تلك البحوث التى كان لها أثرها البعيد فى توجيه الباحثين إلى التراث النحوى العربى تحقيقًا ونقدًا، فهو - أولاً وقبل كل شىء - أستاذ جيل - تدين له الجامعات العربية بنخبة من أساتذتها تتلمذوا عليه ونهلوا من علمه وخلقه.

ا. د. محمود فهمى حجازى
أستاذ اللغة والنحو
كلية الآداب - جامعة القاهرة